البناء
السنة السابعة / الثلاثاء / 15 كانون الأول 2015 / العدد 1958
Seventh year / Tuesday / 15 December 2015 / Issue No. 1958

العراق والوصاية الأميركية

■ حميدي العبدالله

كشفت الأزمة الجديدة بين العراق وتركيا عن مدى التأثيرات الضارّة لخضوع العراق للوصاية الأميركية. هذه الوصاية لعبت الدور الأكبر في توليد واقعين هما اللذان يفسّران المآسي والكوارث التي حلّت وتحلّ بالعراق. يتمثل الواقع الأول بالمحاصصة الطائفية التي فرضها الاحتلال الأميركي، وإسقاط الدولة الوطنية. وبديهي في ظلّ هذه المحاصصة تمّ إطلاق تنافس بين المكوّنات العراقية في ما بينها على السلطة، حيث يسعى كلّ طرف للاستقواء بحلفاء خارجيّين للحصول على أكبر مكاسب في السلطة. وبديهي هذه المحاصصة والتنافس وما ينبثق عنها من صراعات حال دون بناء أجهزة قوية لدولة موحدة، بما في ذلك أجهزة الجيش والشرطة والقوى الأمنية، ولهذا انهارت هذه الأجهزة ومؤسسات الدولة عند أول اختبار تمثل بهجوم «داعش» على مناطق يطغى على سكانها مكوّن محدّد من المكوّنات العراقية.

الواقع الثاني، تجسّد بتبعية أطراف عراقية للولايات المتحدة. الأمر الذي قاد إلى عجز الحكومة العراقية عن القيام بأيّ عمل لا تقوم الولايات المتحدة بتوفير الغطاء له، وإقناع المرتبطين بها تسهيل هذا العمل. لهذا مثلاً جرى تعطيل شنّ حملة واسعة لتطهير محافظة نينوى التي تشكل المعقل الرئيسي لتنظيم «داعش»، وعرقلة تطهير الأنبار من سيطرة هذا التنظيم، ووضع شروط لأيّ حملة عسكرية تستهدف هذه المناطق، ومن بين هذه الشروط تسهيل عودة النفوذ الأميركي إلى العراق على النحو الذي كان عليه الحال قبل عام 2011، أيّ عندما كانت القوات الأميركية تحتلّ العراق، وهذا يعني أنّ صيغة الحكم التي خلّفها الاحتلال الأميركي باتت منتجاً دائماً للنفوذ والوصاية الأميركية على العراق.

اليوم وبعد انتهاك تركيا للسيادة العراقية، يتكرّر المشهد ذاته الذي ساد في مواجهة تنظيم «داعش»، ويعود ذلك إلى أنّ الولايات المتحدة، وهي دولة الوصاية حتى الآن على العراق، ترفض أيّ ردّ حازم من قبل العراق الرسمي على انتهاك السيادة العراقية، على الرغم من وضوح هذا الانتهاك، وتعارضه مع القوانين والأعراف الدولية.

وهكذا بات ردّ العراق الوحيد على وجود قوات تركية على الأراضي العراقية من دون التنسيق مع الحكومة العراقية محصوراً ببيانات الشجب والتنديد، وتنظيم المظاهرات ودعوة مجلس الأمن إلى القيام بدوره، وهي دعوة عقيمة لن تسمح الولايات المتحدة لها بأن تصل إلى مستوى ما يطمح إليه العراق.

طالما أنّ الوصاية الأميركية على العراق قائمة، لن تهزم «داعش»، ولن يخرج العسكر التركي.

السعودية بين الاعتراف والاختبار

ما ان اندلعت الحرب على اليمن حتى بدأت الرهانات التي كادت تتلاشى بشأن نصر لحلف الغرب في سورية وإسقاط الرئيس الأسد ونظامه تتفاعل من جديد، نظراً لما لليمن من قدرة موقع وموقف وتأثير على الاستراتيجية السعودية برمّتها في تغيير مصير الحروب الممتدّة بالمنطقة والتي تورّطت فيها السعودية بشكل مباشر.

لا يمكن غضّ النظر عن تأثر الحرب على اليمن بالحرب السورية، فأي مفاوضات تتعلق بواحدة ترتبط بالأخرى بشكل مباشر. كيف لا واللاعبون والحلفاء المشاركون في المعركتين هم انفسهم الذين خططوا لإشعالهما وربطهما ببعضهما البعض من اجل ضرب حلف مترابط ممتدّ من إيران فسورية والعراق واليمن حتى جنوب لبنان.

لقد ساهم الصمود السوري بشكل مباشر في إظهار الصمود الاسطوري للحركات المقاومة التي تقاتل العدوان السعودي على أهل اليمن أهمّها حركة «انصار الله»، وهي التي تُعرف بالحركة الحوثية، اما اللافت فإنّ هذه الحركة قدّمت للسعودية ملفاً شائكاً من الوقائع التي لم يعد ممكناً تخطيها، لا بل فوجئت السعودية بأنها لم تكن على علم بمقدرات وسرعة نمو هذه الحركة شعبياً ولوجستياً حتى استطاعت الصمود لتسعة اشهر.

هذه التسعة اشهر هي المدة الزمنية التي استطاعت حركة انصار الله الثبات فيها من دون تراجعات ولا تنازلات على الإطلاق، وقد قدّمت الدماء بدلاً من القبول بالعروض الإلغائية التي فرضتها السعودية في أولى محادثاتها من اجل ايجاد حل سلمي لكن من دون الاخذ بعين الاعتبار ان الحركة باتت كياناً يتصعب القفز عنه من دون الاعتراف فيه كشريك في المصير.

كشفت الحرب اليمنية الكثير من الثغرات التي كانت تحاول السعودية التخفي وراءها، وكشفت عجز العائلة الحاكمة عن السيطرة على الملفّ بشكل يحفظ لها ماء الوجه امام المجتمع الدولي، ولا يورّط المملكة فيها كشريك فاعل في اغراق البلاد بالدماء.

كشفت الحرب اليمنية زيف المقدّرات السعودية الاستخبارية حيث استطاعت المقاومة اليمنية خرق الحدود اكثر من مرة خلال الحرب، وها هي دخلت قرى ومدناً حدودية سعودية للمرة الاولى بعدما ظنّت انّ اليمن اضعف من ان يدافع عن نفسه.

استأجرت السعودية قوات مرتزقة من أجل الدفاع عنها من دون ان تورّط الجيش السعودي في هذه الحرب واذا كان هذا يفسّر شيئاً فهو تفسير لأمر واحد وهو قلق كبير من اعتراض شعبي وسياسي داخل المملكة قد يطيح بالحكم ومن فيه بسبب الانهيارات التي كان ممكناً ان يتسبّب بها قتال الجيش السعودي امام صلابة وبسالة المقاتل اليمني المغوار الذي لا يملك الا روحه يقدّمها في سبيل وطن حرم فيه من ادنى حقوقه الانسانية.

الاعتراف بالآخر هو الطريق الوحيد لحلّ الازمة اليمنية، وربما السورية ايضاً، وهذا الاعتراف بدأت مؤشراته تتبلور وتتكشف بمجرّد قبول السعودية منح التأشيرة للحكومة اليمنية بقيادة هادي من أجل تشكيل وفد يفاوض انصار الله ومن معهم من فريق المقاومة اليمنية، وهذا ليس اعترافاً بشرعية الجهة التي ستحكم مع الآخرين البلاد في المستقبل، هذا الاعتراف السعودي وحده قادر على تثبت نوايا الحلّ السياسي الذي لم يعد هناك مفرّ منه بعد كل المحاولات السعودية إلغاء الزخم الذي تتمتع به حركة انصار الله واحباط عزيمة اليمنيين المناصرين لها وبعد استخدامها لأشرس الاسلحة من دون القدرة على تحقيق هدف واحد من اهداف العملية.

اليوم يبدأ العمل بوقف القتال في اليمن ويُفترض أن يعلن الرئيس اليمني من كنف القرار السعودي دعوة لوقف إطلاق النار، وسيشكل صمود وقف النار وجدية الالتزام به اختباراً لمدى صدقية التموضع السعودي ضمن خيار التسويات، بعد ممانعة طويلة ارتبطت بالرهان على نجاح الخيار العسكري بتحقيق السيطرة على اليمن.

السعودية امام الاختبار والاعتراف...

«توب نيوز»

التغيير من اليمن

– لم تكن مصادفة أن تبدأ السعودية حربها على اليمن مع توقيع الوثيقة الإطار للملف النووي الإيراني في نهاية آذار الماضي.

– كانت السعودية تعتبر أنها تستطيع من بوابة حرب اليمن التي لم تكن ضمن توقعات أحد أن تقلب الموازين في الخليج فتستعيد صفة القوة الخليجية الأولى وتضبط وراءها كلّ الدول الخليجية وتخاطب إيران من موقع القوة.

– راهنت السعودية على هذا الوضع وتحقيقه بسرعة بحسم متدحرج أن يغيّر قواعد التفاوض حول الملف النووي الإيراني ويمنح المفاوض الأميركي مكانة متقدّمة تسجل للسعودية.

– حسبت السعودية لنصرها اليمني ومردوده الأميركي ودوره في تحجيم إيران فرص الإستفراد بسورية، فتهيأت بعلاقة مع تركيا و«إسرائيل» و«القاعدة» تسمح بهجوم شامل في سورية سمّوها عاصفة الحزم الثانية

– ذهبت السعودية إلى حملة علاقات عامة استباقية بفتح قنوات التواصل مع روسيا لتفاوض لاحق بعد نصرها محوره سورية.

– الفشل السعودي في اليمن يدخل العدّ العكسي بقبول التزامن بين المفاوضات ووقف النار للمرة الأولى.

– صواريخ توشكا تتكلم وتقول لمن اليد العليا.

– من اليمن يُرسم وجه المنطقة الجديد بنهاية الحقبة السعودية.

التعليق السياسي

تبقى «المنار» منارة... رغم غيّهم

■ د. سلوى الخليل الأمين*

جاءنا الفاسق بالنبأ... ممدّداً على منارة الكلمة الناطقة بالحق والحقيقة سمّه الزعاف، راجماً في زمنه، زمن التسلط والتجبّر والغضب، محطة «المنار» التلفزيونية بسوادوية حقده الأغبر، عاملاً على شطب إرسالها عن قمر «عربسات»، كما فعل سابقاً مع الفضائية السورية وبعدها مع قناة «الميادين».

هنا علينا كمتابعين ومثقفين وأهل فكر وقلم أن نقف متسائلين: ماذا فعلت قناة «المنار» كي تستحقّ هذا الفعل المشؤوم الذي ضرب عرض الحائط بحرية الرأي واحترام الرأي الآخر؟ هل هو نتيجة الصراع الدموي الذي افتعلوه منذ ضياع فلسطين وحتى حرب اليمن وما سبقها من مؤامرات ما زالت تغلّ في ربوع سورية والعراق، دون رفة جفن، أو التماس إيمان مغلّف بالإنسانية التي امّحت من قلوبهم الصفراء، ثم هل سفحت روابط الدم بين الأشقاء فوق هيكليات الرؤى الملتبسة سياسياً ووطنياً وقومياً وعربياً، مما أدّى إلى شطب القضية الفلسطينية من واجهة الأحداث، كي تحلّ محلها الفتنة الطائفية الممذهبة، والعنصرية البغيضة، وحبّ السلطة والمال، وحياكة المؤامرات بتنوّع مساراتها واتجاهاتها الخاطئة، التي قسّمت وطننا العربي الكبير في ما مضى، إلى أوطان هزيلة عبر معاهدة «سايكس بيكو»، التي لما تنته فصولها المشؤومة حتى اليوم.

لقد استهدفوا قناة «المنار» بإشاراتهم «العربساتية» الحاقدة، وسهامهم الصدئة، في الوقت الذي تستباح فيه مدينة القدس المقدّسة في فلسطين، حيث يقتل أهلها وأطفالها دون ذنب اقترفوه، سوى أنهم شعب مناضل من أجل الكرامة الوطنية وإعادة الحق إلى أصحابه، عبر مقاومة الظلم والبغي والتجبّر والاعتداء الغاشم، بالرغم من تهديم منازلهم على رؤوس ساكنيها دون أيّ اعتراض عالميّ أو حتى عربيّ أو إنسانيّ، تماماً كما تمّ استهداف العراق سابقاً، باحتلال مبرمج، وحالياً بتفتيت وتقسيم عنصري واثني، وكما تلقفوا المؤامرة الكونية على سورية، وكانوا دعائم تمويلها بالمال والعتاد والسلاح والعصابات الإرهابية المبرمجة على زرع الفوضى والتدمير والذبح والقتل دون شفقة أو رحمة، وعبر تغطيات إعلامية مفبركة صنعت للغاية نفسها، عبر محطات عربساتهم التي ما زالت تسرح وتمرح في الفضاء، دون أيّ مساس بشرائطها المعلقة على هواء قمر «عربسات»، لأنهم أرادوها السيف المسلط الذي يسبق العدل.

فالإرهاب الذي احتضن جنيناً في دوائر القرار في الولايات المتحدة الأميركية، وتمّت تغذيته بالمال والسلاح من أجل تدمير سورية وتفتيت العراق، ليس قدراً مرفوعاً على رايات الإصلاح، وشعارات الحرية والديمقراطية، بل هو عملية تدمير مبرمج لتاريخ حضاري، جذوره ضاربة في عمق الجغرافيا الكونية، التي يحاولون تغيير خرائطها من جديد، فمنطقة بلاد الشام زاخرة منذ القدم بحضارات الأمم، التي تعاقبت عليها منذ الآف السنين، زارعة بين ظهرانيها تاريخاً مبوّب الصفحات، ثرياً بالموجودات الشاهدة على أصالة وعراقة النبت، الذي ما زالت مناراته تشعّ علماً ومعرفة منذ القدم.

وما إغراق لبنان في حمّى هذه التجاذبات السياسية المتماهية بين مؤيد للقضية الفلسطينية، ومقاوم للعدو الصهيوني، وبين مؤيد لـ«داعش» وعصاباته الإرهابية المجرمة، التي ذبحت الجنود اللبنانيين في عرسال بدم بارد، وبأموال عربية قطرية وسعودية، سوى فعل سوء مما يخطط وينشر ويروّج من أجل تمدّد قوة الإعصار الذي سيجتاح يوماً أرواحهم الممتلئة بالحقد وعلامات الخزي والعار، والترهيب المبرمج القائم على أساس نشر رسالة الإسلام، إسلامهم المموّه، المعبّأ بالإجرام والكفر والفبركات، التي لا تمّت بصلة وصل إلى رسالة الإسلام الصحيح، التي هي رسالة الإخاء والسلام والمحبة وكلمة سواء، والحرية والتسامح والعدل، حيث لا إكراه في الدين، وكما ورد في سورة الكهف الآية 29: «وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها»، إذا فالله هو العليم الخبير، فهل يا ترى يتساوى من يحمل السيف مقاوماً حتى الشهادة، دفاعاً عن الأرض المقدّسة في فلسطين، وعن الكرامة الوطنية في العراق وسورية ولبنان، مع إرهابي مجرم يذبح الأبرياء بحدّ السيف دون رحمة أو شفقة؟

لهذا كله يريدون إسكات قناة «المنار»، هذه المحطة المقاومة لكل أنواع الظلم والقهر والتعدّي، الواقفة بالمرصاد صوتاً وصورة بوجه كلّ المعتدين على تشويه الحقيقة، فهي التي اتخذت صراح القول هدفاً، ونقل الخبر اليقين بدقة المؤمن المؤتمن غاية إيمانية، فمراسلوها في كل مكان، ينقلون الحقيقة الواضحة التي لا لبس فيها، ولا ارتهانات مقروءة تحت عين الشمس، ولا خزعبلات شيطانية مرسومة بعين خبير دولي، موضوعة قيد التنفيذ حين تحل الساعة.

قناة «المنار»... وجدت لترفع الحق صولجاناً في الأوقات الصعبة، وراية مجد في زمن التقهقر والتخلف والارتهان والعمالة الواضحة، وشراعاً يعتلي مراكب الغفلة حاملاً قناديل النور إلى معارج الظلمات في لحظات الشدّة، التي أفلست فيها الضمائر والعقول، كما أفلست الجيوب الشريفة، لهذا استهدفوها، واتهموها، وخاصموها، ونثروا حقدهم على ممرّاتها الريحانية، المبخرة بدماء الشهداء من أبنائها، الذين حملوا شرف الأمة وكرامة الأوطان طريق جهاد ونضال لا يمسّه غبار الحقد والكره، مهما عاكست الظروف واشتدّت الخطوب، ومهما علا الصراخ، ومهما قطعوا أوصال الشرائط الموصولة بقمر «عربسات» من أجل حجب هذه القناة النورانية عن محبّيها ومتابعيها ومشاهديها، الذين لا تهزهم في قولة الحق لومة لائم، ما دام الفعل المرتجى هو السير على درب الشهادة والصراط المستقيم.

فـ«المنار»، لم تنهزم يوماً أمام نائبات الدهر، ولم يغرها الثناء في مواقع معينة، ولم تحد عن طريق الإيمان بالله والوطن، ولم تهدر كرامات الناس على مذابح الشهوات الخاصة، ولم تتاجر بدم الأبرياء، ولم تعصف عصفها، وهي القادرة حتماً، حين توجه إليها وإلى قادتها السهام، بل تجادلهم بالتي هي أحسن، انطلاقاً من دينها الحنيف القويم، الذي صانته وحفظته شرائع مثالية، لا تشوّه مضامينها القضايا الخاصة، لهذا لم تسبح بهوائها فوق أجساد الناس الطيبين، ولم تتغاض عمّن يستبيح أعراض الناس وكراماتهم، ولم تغفل عمن يمارس فعل التجبّر والغرور والحقد الأعمى، خصوصاً من هم اليوم علة العلل في سلوكياتهم السياسية، التي يمارسونها انبطاحاً أمام العدو الصهيوني، والاستعمار الأميركي الجديد، والطموحات الأردوغانية العثمانية المأخوذة بتنفيذ مخططات قوى الاستكبار العالمي، توخياً لمآرب خاصة. هنا الجميع يدرك بل مغتاظ من مسيرة «المنار»، كونها كاشفة الأسرار والخبايا، وخفايا المؤامرات التي تدسّ في أوطاننا في ليل خفي كثعبان بادية يدغدغه لهيب الرمال في نهار حارّ. لهذا كانت «المنار» القناة الفضائية المدركة كلّ أساليب الكرّ والفرّ والخداع والتدليس والتزييف القائم في أمة رنحنا هواها، وكان الظن أنها أحسن أمة أرسلت للعالمين، فإذ هي متخمة بمن رفعوا عصف الأرياح على أفنان الزهر جنوناً، لا تكتم مساره قناة «المنار»، حين اليقظة هي الشغل الشاغل لها، بل هي الهمّ الوطني العربي الجبار، الذي يضع النقاط فوق الحروف، وهذا الفعل هو مصدر الغيظ الذي تراكم حتى انفجر بليلة رعناء، قراراً موقعاً يقضي بحذف إرسال قناة «المنار» عن قمر «عربسات».

السؤال الذي يتبادر إلى ذهن كلّ مراقب ومتابع هو: لماذا تسيطر القوى العربية الحليفة للسياسة الأميركو صهيونية الرعناء، بمسار قمر «عربسات»؟ لماذا لا يتمّ العمل على إنشاء أقمار محايدة تحترم حرية الرأي ومسيرة الكلمة الحرة، حين هذا الغرب المتسلط يجابهنا بحروبه المغفلة، تحت شعارات الحرية والسيادة والاستقلال؟ ثم أليس في هذا الفعل الديكتاتوري المتسلط تعسّفاً لا يمكن أن يُرتجى منه الخير لمخططاتهم التي كلما ازدادت شراستهم في التعبير عنها، واتخاذ القرارات التعسفية باتجاه طمس الحقيقة النابضة بالحق، كلما انكشفت أساليبهم الشيطانية المحكومة طوعاً لبروتوكولات حكماء صهيون.

بالرغم من كلّ هذه القرارات التعسفية وغيّهم المستمرّ، ستبقى قناة «المنار» كلمة الرأي والرأي الآخر، ومنبر الحقيقة والمرتجى والمتنفس، في ظلّ تعدّد المحطات الإعلامية المدعومة بالدولار المستور، وبالرغم من توجيه سهامهم إليها، لظنهم أنهم سيصيبون منها مقتلاً، لكن جهلهم بواقع الحرية الإعلامية المفتوحة في لبنان على كلّ الخيارات والاتجاهات السياسية، ضمن احترام حق المواطن بتلقي الخبر الصحيح، هو الحق المصون بالقوانين المرعية الإجراء، بحيث لا يمكن لمسؤول أو إعلامي أو مواطن التغاضي عنها. وهذا ما حدث حين تكاتف الجسم الإعلامي مع قناة «المنار»، وقبلها مع قناة «الميادين»، تأييداً لحرية الكلمة، التي لا يجوز حجبها عبر أيّ ذريعة أو سبب.

لهذا دعوني أرشح بعبارات التأييد المطلق لفضاء «المنار» الرحب بالقول:

دعونا نقرأ لغة الحب عبر قناة «المنار» / ونعيد ترتيب عباراتنا الوطنية / حيث فلسطين بالانتظار / وأرض العروبة ترفع رايات مجدها الغابر... استشهاد مجاهدين / رفعوا القسم وعداً... وعهداً ثابتاً / نقشوه على شواهق القمم والساحات المعمّدة بالدم الطهور / حيث الرمح كلمة سيالة فوق مدارات السنين / واليراع سيف مغمّس بعبق التاريخ / وتراويح أمة انسكب هواها بين ممرات الياسمين في شام العروبة / وحقول التبغ في الجنوب المقاوم / وبيّارات الليمون في حيفا ونابلس / لهذا نقرأ «المنار» لغة صمود وثبات وطقوس إيمان في الزمن الصعب. فيا زهرة الزمن المتآكل من أورام أمتنا السرطانية، ستظلين «المنار» بل المنارة التي لا تطفئ أنوارها، مهما طغى الآخرون ومهما تغلغل حقدهم بين السطور.. لأن زمنك زمن المقاومة بامتياز.

* رئيسة ديوان أهل القلم

الحضارات الإنسانية تقول اليوم: الأيدي العربية تطعن ذاتها بأسنّة تلمودية

■ بسام عمران*

نتمترس خلف خيوط الأمل وأغنيات الوجد لنزيح بعض العتمة عن نفوسنا عندما نتوهّم أننا نقتنص من الأيام لحظات لذة المعرفة التي نظنّها ستقودنا إلى فضاءات مليئة بصخب الحياة وطقوس العذوبة والبراءة الإنسانية لنجدّد محاولات الوداد التي لا تزال معلقة على حيطان الكلام وشبابيك الرؤى الحالمة بعلاج شاف لحاضرنا...

في خضمّ هذا التأمّل تبرز تساؤلات كثيرة تعصف بذاكرتنا الاجتماعية، ومنها، هل تهنا بين مفردات سطور صفحات التاريخ المقدّم إلينا وفق رؤية لا تمتّ إلى قيمنا الإنسانية بشيء يذكر؟ وهل أصبحنا نجهل موروثنا الثقافي والحضاري ونحن نخوض عباب بحر من الأكاذيب والافتراءات التي شوّهت قيمنا حتى أصبحنا ليس أكثر من أوراق تبعثرها الرياح ذات اليمين وذات الشمال لندخل منتصف العقد الثاني من هذا القرن من أوسع أبواب متاهاته وكأننا نعيش في الوقت الضائع أو المستقطع...؟ وهل غادرت أدمغتنا كينونة العروبة لنسير الهوينا الهوينا لالتقاط بعض ما تبقى منها والمنتظرة إدخالها غرف الإنعاش لتجدّد نبضها...؟ وهل باتت أمة العرب تتلعثم اليوم حتى بمفردات عروبتها لتبدو وكأنها فاقدة القوة والأصالة والعنفوان؟ فها هي فلسطين تستصرخ وتستغيث وجعاً ممضاً وقاتلاً وأقصاها ومهدها يئنان ألماً من تيه العرب، مسلمين ومسيحيين، جراء زوابع هوجاء محمّلة بمفرزات غبار مجرثم... زوابع تستهدف طعن ذاكرة وجودنا لتغيبنا عن حقائق الواقع وتنسينا حتى زرقة السماء... وهل... وهل؟ إنها تساؤلات لم تُعرف لها أجوبة إلا على أوراق بعثرناها أو جرت بعثرتها رغماً عنا حتى لا نعرف من نحن ومن نكون وأيّ أمل رسّخناه بأرقام وحروف أقلّ ما قيل عنها إنها بداية ابتكار تدوين أفكار الإنسان...

فاليوم تجتاحنا بل تغزونا تيارات متعددة المصادر وتزدحم أحداث متلاطمة الأمواج تمنّ علينا ببعض فتاتها كي تساعدنا على النسيان والاغتراب عن جماليات فكرنا الإنساني... ومصدّرو هذه التيارات يتجاهلون حقيقة أنّ للزمن بصمة لها خصوصية مؤثرة وآسرة في النفوس، رغم تسارع أحداث مؤثراته، ونتيجة لهذه التيارات بات زمننا العربي يسير بنا بخطا متسارعة باتجاه المجهول سارقاً قدراتنا وحتى أقدارنا من بين أصابعنا المثخنة الجراح... فإلى متى سنبقى في هذا التيه...

لقد آن الآوان كي نزيح عن إرثنا الحضاري غيوم الضلالة والبهتان التي تقصينا عن ركب الحضارات بإصرار لم يعرفه حتى الآن شعب غير العرب... هذا التمادي يجب أن يوضع له حدّ قبل فوات الأوان لتدفع عن إنساننا همجية الجشع والعلاقات المتأرجحة بين المصالح وصدى الثروات... لقد عرف التاريخ المعولب والمصدّر والمسوّق إلينا عصوراً أطلق عليها زوراً وبهتاناً حجرية... حديدية... نحاسية... برونزية إلخ... وكأنّ هذه الأشياء ظهرت إلى الوجود من تلقاء نفسها دون تدخل واعٍ من إنسان مبدع استطاع بفكره الفذ أن يصنع خليطة البرونز مثلاً... هذا النكران وقلة الوفاء انتقل إلينا في غفلة منا حتى اعتنقه الكثير من مؤرخينا وباحثينا، علماً أنّ الموضوع لا يحتاج إلى كثير عناء لنعرف أنّ إنساننا العربي هو من غيّب قسراً عن مسرح أحداث التاريخ، بدليل تقسيم هذه العصور حسب أدواتها التي ابتكرها ابن هذه الأرض والانتقال بها من صفتها المعدنية إلى قوميتها وبشكل مفاجئ حيث يسمّى عصر الحضارة الإغريقية واليونانية... و... و... هذا الواقع المسحور حتى أنين الوجع وصراخ الألم لا يصدّقه عقل يعي ما يُقدم عليه... فإلى متى نبقى مغلقي العيون عن أزمنة لا نزال نزهو بها وهي أمامنا مهجورة تنتظر مصادفة تحمل عطرها إلينا لتعيد إلى نفوسنا القدرة على التوهّج قبل انطفاء تلك الومضات الباقية في أرض مهد الحضارات الإنسانية، فالحضارة السومرية باعتراف الجميع هي أولى الحضارات البشرية، والتي لا تزال اكتشافات عطاءاتها تتوالى حتى الآن... والمدهش إلى درجة الغرابة أننا لا نزال نعتمد في قراءة المكتشفات واللقى الأثرية حتى الآن على أناس لا نقول جميعهم يكنون لنا العداء وأنْ أحسنّا الظن بهم نقول إنّ بعضهم يشاركون في تغييب إبداعات الإنسان العربي الذي أنار دروباً لا تزال تضيء وتلهم الإنسانية لتقدّم كلّ جديد في عصر متسارعة أحداثه ونتاجاته؟ أم أنّ السبق التكنولوجي والتقدّم الصناعي أعمى فكرنا وأغلق بصائرنا عن حقائق ناطقة لا يمكن إخراسها عند ذوي الألباب والضمائر الحية التي تنادي من خلف البحار قائلة: إنّ تاريخكم منارة يُقتدى بها وعليكم وحدكم يقع عبء تصحيحه مما لحق به من زيف وتزوير وطمس لحقائق إبداعات أبناء هذه الأرض، لأنّ حركة وحراك التاريخ لم تشر حتى الآن إلى أيّ مجموعة بشرية اشتركت في الأفكار والعواطف والعادات والتقاليد والمصالح واللغة وأغلب أسس منهج الحياة كمجموعة الحضارة العربية... هذه المجموعة رغم كلّ ما عصف بها من أهواء الحكم والمصالح الذاتية على مرّ التاريخ ظلت مثل شجرة وارفة ترسّخ جذورها في الأرض لتفتح أبواب كنوز المعمورة فتفيض على الدنيا بعلوم الحساب والهندسة والفلك والكيمياء والطب والعلوم المادية والإنسانية المختلفة... وتسمو هذه الحضارة – الحضارة العربية – لتقدّم للبشرية عصارة فكرها وحكمتها ومعارفها الإنسانية... لتؤتي ثمارها كلّ حين حتى في هذا الزمن الصعب الذي تكالبت فيه كلّ مصالح القوى الطاغية لاجتثاث هذه الشجرة من جذرها، ثم حرق أغصانها وجعل رمادها يُنبت زرعهم الجديد...

وكما أنّ الشجرة تزداد نمواً وإثماراً بالتلاقح والتطعيم، كذلك هي الحضارية العربية، ازدادت نماء وخصباً وعطاءً حين تفاعلت شعوبها مع عطاءات الأمم الأخرى... وقام هذا التفاعل على تبادل الأفكار والآراء والتجارب ما أنتج تطوراً ملحوظاً على الحراك الفكري والثقافي والاجتماعي الذي شكل في ما شكل حصناً منيعاً أمام محاولات الهدم والاختراق...

ولا تزال أمتنا العربية تتحدّى حتى اليوم كلّ معاول القلع العنصرية والطائفية والاستعمارية والمصالح الذاتية وخاصة معول العولمة الذي يهدف إلى تغييب حضارتنا عن وقائع التاريخ تمهيداً لمحوها من سطور الكتب ومن ذاكرة أبنائها، ليسهل على مسوّقي الفكر الدخيل على حضارتنا وقيمنا زرع أفكار تناسبه في رؤوس مفكرينا ومثقفينا ومن ثم عقول أجيالنا لتتماهى مصالح الاستعمار مع بعضها أولاً ومع القيم الجديدة التي غرسها في العقول وبذلك يتمّ تغييب نهب ثرواتنا عن الأنظار...

إنها تساؤلات وأشجان النهاية... نهاية عصر التوجّع وحكايات الابتسامات الصفراء التي تطفلت على ماضينا وحاضرنا معاكسة أفعال التاريخ وفاعليته ومتناسية أنّ هذه الأمة كانت ولا تزال منبع بوح المعرفة ومن أرضها شعّ النور ليضيء منارات العلم ويرسي مبادئ القيم الإنسانية والأخلاقية للبشرية جمعاء.

إنّ نبضات الحياة ووميضها يفرض علينا العيش مع بيارق الأمل المتجدّدة من خلال فهم أفضل لما هو آت، فالماضي لن نستطيع إصلاح أخطائه ولا الدخول إلى لحظاته، وكل ما نستطيع فعله هو الاستفادة من تجاربه وعطاءاته... ومع هذا الوميض يختزن كلّ منا أحلامه الخاصة... ومع تكتكيات الثواني وتوالي الأيام ننتظر تحقيق بعض أحلامنا والأخرى نؤرشفها في خزائن لا نملك لها مفاتيح، ولعل أجيالنا القادمة تستطيع فك رموز هذه المفاتيح لتجدّد بوح نبضها ولتزيح العتمة عن تاريخنا وحاضرنا.

* كاتب وصحافي سوري

الإشكاليات الديموغرافية الأوروبية

■ سلام الربضي*

الحاجة ملحة لإيجاد أفكار جديدة حول ما يتعلق بفهم مستقبل أوروبا، فإمكانية واقع انقراض الشعوب والثقافات والحضارات عملية ليست مستحيلة بل ممكنة وهي ثابتة تاريخية. وهذه الفكرة لابدّ من استحضارها عند محاولة مقاربة إشكالية انخفاض معدل المواليد في أوروبا إلى ما دون مستوى الإحلال. إذ يجب محاولة الكشف عن الديناميات والنتائج من جراء هذا التحوّل الدراماتيكي في المشهد الديموغرافي الأوروبي. فهنالك قدر هائل من التحوّلات في السلطة والمعايير التي من شأنها أن تعمل على إعادة تشكيل المستقبل والتي ترتبط ارتباطاً وثيقاً مع المسار الشائك لقضايا:

أ – المساواة بين الهجرة والاندماج والتضامن الاجتماعي.

ب ـ الإرهاب والأمن القومي.

ج ـ التعددية الثقافية وحقوق الإنسان.

د ـ الديموغرافيا ودولة الرفاه.

وبناء على كيفية التعامل مع العلاقات المتداخلة بين كلّ من الديموغرافيا والسياسة والثقافة والاقتصاد والأمن وحقوق الإنسان يمكن لنا طرح الإشكاليات التالية: لماذا بعض الدول الأوروبية على استعداد لقبول مستويات عالية من الهجرة عندما لا يكون في مصلحتها القيام بذلك؟ هل يشكل هذا التدفق تهديداً للمؤسسات السيادية ولمبدأ المواطنة؟ وهل ينبغي أن ينظر إلى الهجرة في المقام الأول باعتبارها قضية أمن ثقافي أم مسألة تنافس اقتصادي؟ وكيف يمكن بناء مجتمع متنوّع داخل الدول الأوروبية في ظلّ هذه الإشكاليات؟ فأين حدود الأمن الديموغرافي الثقافي؟ وأين تبدأ حدود المصالح الاقتصادية وأين تنتهي؟ وهل تتجه الهويات الثقافية انطلاقاً من البعد الديموغرافي لتغدو وكأنها استراتيجيات أو أسلحة في المنافسات على السلع الاجتماعية النادرة؟

أي نوع من «ثقافة الترحيب بالمهاجرين» تحتاجها أوروبا؟ وما الذي يجب تغييره في تعاطي السلطات الأوروبية مع المهاجرين؟ وهل ينقص أوروبا على المستوى العام نظام مركزي موحد للهجرة؟ وهل أوروبا على استعداد مستقبلاً لتقبّل فكرة أو ثقافة إعطاء الحقوق للإقليات التي تتكوّن وتتضح معالمها الثقافية يوماً بعد يوم مع ازدياد نسبة المهاجرين؟ وهل تضمن أوروبا عدم زعزعة أمنها القومي والسياسي عن طريق استغلال هذه الأقليات من قبل استراتيجيات دول أخرى تربطها بها صلات ثقافية أو دينية أو مصالح سياسية واقتصادية؟ وهل يمكن استخدام سياسات التعدّدية الثقافية بأنشطة سياسية مؤثرة قادرة على أضعاف سلطات الدول الأوروبية؟ على سبيل المثال لا الحصر: كيف يمكن التعامل مع إمكانية استخدام تركيا لمثل هذه السياسية مستقبلاً تجاه ألمانيا نتيجة تواجد جالية تركية كبيرة من أصل تركي؟ أو كيف تستطيع فرنسا مواجهة عصيان الضواحي الباريسية مرة أخرى في المستقبل ولكن مع فارق احتمالية اختراقها مخابراتياً من قبل دول أخرى وبشكل أمني عسكري إرهابي كما حدث مؤخرا في باريس؟ هل ستكون الأزمات الاقتصادية والديموغرافية التي تؤرق أوروبا بمثابة حجر الأساس لما يمكن تسميته بنظرية «الصحوة الدينية» نتيجة إحياء الأسرة باعتبارها البديل الاستراتيجي الأكثر واقعية؟ ولماذا البعد المعياري، هو الغائب الرئيسي عند مناقشة قضايا التعدّدية الثقافية في الدول الأوروبية؟ ولماذا معظم الأدبيات الأكاديمية الأوروبية، التي تتناول العلاقة الديناميكية بين الأقليات المهاجرة وأكثرية المجتمعات الأصلية ذات توجه تحليلي اقتصادي أكثر منها توجه استراتيجي سياسي ثقافي أمني جوهري على نحو مباشر؟

لا وجود لجواب محدّد لهذه الأسئلة. ولكن، خيار وجهة النظر، يمكن أن يصنع اختلافات مهمة جداً عند رسم الاستراتيجيات. فأمام هذا الوضع الديموغرافي المستجدّ يصبح من اللازم التفكير في استنباط نظريات جديدة على صعيد قضية الهجرة والديموغرافيا والتعددية الثقافية لأنّ عملية استيعاب المهاجرين واندماجهم في المجتمعات الجديدة يضع كثير من النماذج والأفكار محلّ جدل واقعي جراء ما يمكن تسميته التعقيد الديموغرافي. وهكذا فإنّ إشكاليات الديموغرافيا وما تحتوي من معضلات جديدة لأوروبا لا يمكن فهمها دون وجود نوع جديد من التحليل السياسي والتي من خلالها يمكننا أو قد نستطيع معرفة: كيف ستواجه النخب الأوروبية كلّ هذه المعضلات؟

* باحث في العلاقات الدولية ـ اسبانيا